

جورج شحاده

شاعر الحنين الى الفردوس المفقود
بتلميذ صباح يحيى الدين

ظهرت مؤخراً في باريس مجموعة شعرية للشاعر اللبناني (باللغة الفرنسية) الاستاذ جورج شحاده بعنوان « الأشعار » Les Poésies . وهي تضم كل ما نظمه الشاعر منذ عام ١٩٣٨ حتى الآن وتشتمل على اربعة دواوين ، الثلاثة الاولى منها تحمل اسم « اشعار » (٣٠٢١) والرابع بعنوان : « اذا كنت تعرف يامة » Si Tu Connais un Ramier . وقد استقبلت هذه المجموعة باعجاب اجمع عليه النقاد الفرنسيون على اختلافهم .

وفي هذا المقال يعطينا الكاتب صورة عن جورج شحاده الشعري .

القديم الذي يتحدث عن جمال الزهور وعذوبة الينابيع وحلاوة الطفولة ، وبعض اشعار عمر الحيام ، فتأتي مكتملة لما تجيش به نفسي من المشاعر . وكالنار تنتشر من الاقرب الى الاعد . اخذت اترنم ببعض ابيات علقت بذهني من شعر « جورج شحاده » :

رب جنينات لم يعد لها دار
وحيدة مع الماء
Et qui sont seuls avec l'eau
Des colombes les
traversent bleues, et sans nids
تجوّزها حمام ، زرق ، ما لها اعشاش

وعدت فبجأة الى ذاتي اسألها عما جعلني اضع « شحاده » هذا الموضوع ، بين الشعر التركي والحيام وهذه الحدائق النيرة من السجاجيد . وما عتمت ان ادر كنت ما كان فكري الباطن قد عقله منذ اول وهلة . فاني - منذ قرأت ديوان جورج شحاده - وانا احاول ان اجده له صحبة لاثمة في ما اعرف واحب لكي اضعه بين اقرانه . وقد باءت محاولاتي بالفشل حتى تلك الزيارة الى معرض السجاد .

هذا إذن هو شعر جورج شحاده ، سجادة تحوي في نطاقها الصغير جمال الحدائق وروعيتها ، وهذا هو عالمه الشعري ، عالم ضيق ضيق السجاد او ضيق الحدائق المعلقة في اروقة الاديرة او في البيوت القديمة التي آنتت طفولتنا ، حيث لا ترى العين سوى سروة او دفلى وشجيرات من الورد او الياسمين وفسقية يتفجر منها الماء في سير رقيق . وهذه الحدائق على صغرها بحر ليس له ساحل للتأمل ، يتركز الفكر في نطاقها فيذهب الى لب الاشياء وجوهرها ، ولا يتبعثر امام الآفاق الواسعة التي يضيع فيها الفكر ويذوب التأمل .

من اجل ما غلغته حلب من ذكريات في نفسي ، زيارة الى احد تجار السجاد فيها . واذكر اني كنت آنذاك في حمى المراهقة ، اجتاز تلك السن التي يكون فيها الحس أرهف ما يكون ، وتدق فيها المشاعر حتى كأن النفس وتر مشدود يطن لهفيف كل ريح عابرة ، وتفتح فيها الروح على العالم الخارجي وهي لم تنفلت بعد من احلام اليقظة ومن هواجس العالم الداخلي . وتلك السن برزخ بين الطفولة والرجولة ، تضرب بين براءة الاولى واحاسيسها وبين ما تجبئه الثانية من واقع يومي لا يؤمن بالاحلام ولا يشفق على الرؤى ، الشوق يحملنا الى آفاق الرجولة ويمسكنا الحنين الى فراديس الطفولة .

وان هذه الاويقات الثمينة وامثالها قد استقرت في اعماق نفسي كواحاح نيرة مونة اعود اليها بين الحين والحين لاستجم من وعثاء الحياة واستريح من تعبها .

وها انا - إذ اخط هذه السطور - تطالعي من جديد تلك الساعة الطويلة التي قضيتها في مخزن السجاد ، وقد سمّرت ناظري على ما يعرضه التاجر علي منها ، فأرى في ذلك المجال الضيق الذي لا يعدو الاقدام المربعة القليلة حدائق ذات ازهار لا مثيل لها بين حدائق عالمنا الارضي ، وطيبوراً تنبض بالألوان التي تفوق الحياة في بهائها وتكاد تصدح بالغناء ، والتخيل نفسي اعيش في ذلك العالم السحري الذي يربو على الواقع حقيقة ، وهو بعد الصق بقلبي وأحب اليه .

وقد سافرتني خطاي منذ ايام قليلة الى متحف « غاليرا » Galliera في باريس ، حيث اقيم معرض للسجاد الشرقي ، جمع بين نتاج آسيا الوسطى وتركيا وايران وسوريا ، لوحات حية من النسيج تفوق بصفائها وروعيتها لوحات المصورين وتراويقهم . وامام هذه السجاجيد شعرت كأن شيئاً قد انطلق في نفسي وحلني خارج الزمان والمكان ، فعدت الى الورا سنين ودافعتني الذكريات حتى ملأت علي جوانحي ولم تترك مكاناً لسواها . ووجدتني احدق في سجادة تركية واستعيد بعض الشعر التركي

وهنا أود ان اعترف باني قرأت ديوان جورج شحادة اكثر من مرة . ففي المرة الاولى وجدتي كالناظر من خلف نافذة زجاجية غشاها المطر ، فلم أر الا معالم غامضة وصوراً بعيدة . ولكنني لم أياس (انظر قصة القرد والجوزة في « كليمه ودمنه ») وعدت الى الديوان مرة بعد مرة ، فتفتحت امام ناظري عوالم من السحر والجمال . وكذلك الأثر الفني الحق غني بالمفاجآت ، يعطيك من فيضه كلما وردته دون ان ينضب له معين ، ولا تزيدك صعوبة اول لقاء معه الا رغبة في اكتناه اسراره .

فالشعر على شكلين ، شعر يأتي اليك دون عناء فيعقله دماغك قبل ان يستقر في فؤادك ويتلذذ به حسك ، وهذا هو الشعر السائر ، وهو في متناول كل ناظم ولا يتطلب كبير جهد من الكاتب ولا من القارئ . وشعر آخر يتصدى لك من بعيد ، فلا ترى منه الا لمحات تشوقك وتثير ظمأك اليه . فاذا انت رغبت في ان تكشف النقاب عنه ، وجب ان تسعى اليه وتبذل في ذلك جهداً غير قليل - جهد الباحث عن الذهب او الماس في جوف الارض - حتى يتفتح لك ما استغلق عليك منه . وما اعظمها متعة حين ذاك ، ويا ماءاه ويا ظلاه ، ويا واحة القلب الصادي !

وهذا هو شعر « جورج شحادة » ، لا يتفلسف ولا يسعى الى الملاحم ، بل يسيل من الروح الى الروح ، وليس ذلك دون جهد ، اذ دون ائتلاف الارواح سدود من العادات واسوار من الاساليب الموروثة في التفكير والنقد .

وهذا الشعر من النوع الذي لا يعطي الا بقدر ما يأخذ ، فهو شعر تحابٍّ ومشاركة ، لا يفتح الا على المقبل عليه بكل نفسه وحواسه ، ويكاد يستوي فيه حظ القارئ والشاعر في الخلق والابداع ، وينطبق عليه قول باسكال في الباحث عن المسيح « ما كنت لتبحث عني لو لم تكن قد وجدتني » . فالمسألة اذن مسألة شاعرية القارئ ، وقابليته على المساهمة في ان ينفخ من روحه فيما كتبه الشاعر ويساهم في اخراجه الى حيز الوجود . ولذا يخيل لبعض الافكار البليدة الغافية على مفاهيم مبسطة للشعر والشاعرية ولذين يتلقون غذاءهم الروحي بمضوغاً او نصف مهضوم ، ان هذا النوع من الشعر مغلق غامض .

والواقع ان هذا الشعر أسهل ما يكون منالاً لمن يفتح عليه عينين من السذاجة والبراءة ويأتيه بقلب طهور . فهو ينفصل عن الواقع البحث - وهنا يضع زبائن الشعر التقليدي-

ان شعر شحادة حديقة ضيقة ، ولكن فيها للناظر زاداً لا يفي وفي شجيراتنا وغدرانها الرقيقة رقة انامل الاطفال ، مفاتيح لعوالم الطفولة والبراءة . وخير وسيلة لدخول هذه الحديقة ، ان تجرد بما علمتنا اياه السنون ونعود الى ايامنا الاولى ، حين كنا نؤمن بالأساطير والحرافات .

وقد قال احد النقاد في شعر شحادة انه « حنين الى البراءة » ، براءة الطفولة الاولى ونقاؤها . وهذا صحيح يبدو للقارئ لاول وهلة ، في انتقاء الصور واختيار الكلمات .

وجورج شحادة يدور في هذا الفلك الصغير العميق معاً ، بما يؤدي به الى الافلال ، فلا يخرج عن صمته الا نادراً ، حين تدك الرؤى اسوار السكوت وتنطلق من عقابها لتستقر على الصفحة البكر ، كما ان بعض الكلمات والصور ذاتها تكاد تتردد في كل قصيدة من قصائده القصيرة كاللحن الاساسي في السنفونية ، وتتعانق كما تتشابك خيوط النسيج تفتلها اصابع الصانع وتوجهها في رفق وتؤدة فتحيك منها الاثر الرائع . وهكذا شحادة متعلق بالكلمات التالية كأنها تعاويد سحرية ما يكاد يتلفظ بها حتى يخلق منها عالمه الفريد :

الورد ، الطفولة ، الزهر ، الياسمين ، الاوراق ، الشجر ، الغابة ، العصفور ، اليامة ، الحمام ، النجم ، البستان ، الرؤيا ، الماء ، البحيرة ، البحر ، النبع . . .

وهذه كلمات تفيض شاعرية بدائية قد ذهبت برونقها كثرة الاستعمال ومر الايام ، ولكن شحادة بفضه وكفسيه - يشيد منها دنيا شعرية تأخذ بالقلب ، ويعيد الى هذه الالفاظ الحائلة رونقها الاصلي ، ايام تتم الانسان بالشعر اول ما تتم .

مكتبة المعارف في بيروت

ساحة النجمة - شارع المتصر
سنة ٩٥ - ٦٧ بيروت

هي اول ما يفكر به الاديب

عند فراغ جعبته وعند نفاذ مكتبته

من كتاب يقرأه

اتصالات مع جميع الاقطار العربية

مختارات من شعر شحادة

A mon amour je suis dans
une prairie

يا حبيبي انا في مرج

Il y a des Jardins qui n'ont
plus de pays

رب جنينات لم يعد لها دار

Avec des arbres de mon âge

مع اشجار في مثل سني

Et qui sont seuls avec l'eau

وحيدة مع الماء

Mais des gazelles passent
dans les cils endormis

ولكن غزلاناً تمر في الجفون الوسني

Des colombes les
traversent bleues et
sans nids

تجوّزها سحائم ، زرق ، ما لها اعشاش

Ce soir la mort est la
fille du Temps bien-aimé

والمنية ، هذه الامسية ، هي

Mais la lune est un cristal
de bonheur

ولكن القمر زجاجة من الهناءة

Dans cette campagne où
le soleil meurt

في هذه البرية حيث تموت الشمس

Et l'enfant se souvient
d'un grand désordre clair

والطفل يستعيد ذكرى فوضى

كبيرة صافية

Comme un cheval boit

كما يعب جواد

L'herbe et le temps ont
la même peine

يحمل العشب والزمن ذات الالم

L'étoile reviendra sur
le jardin détruit

سترجع النجمة على البستان الحُرب

Un violon chasse des
ombres de sa main.

وتريح كمنجة ظلالاً بيدها

Pareille à la goutte d'eau
des naissances

كأنها نقطة ماء الولادات

Rappelle-toi les étangs de
la mer lointaine

تذكر مستنقعات البحر البعيد

Les oiseaux s'ouvriront
qui n'ont plus de patience

وتفتتح الطيور التي فرغ صبرها

Quand tu dormiras dans la
terre des enfants

حين تتوسد ارض الاطفال

Et ce sera le songe
de la première nuit

ولتكون - عندها - رؤيا الليلة الاولى

تقسم الادب والشعر الى مدارس واساليب ، كأن انتاج الفكر بصل وفجل او دجاج وبقر . ولكن ذلك يسهل على النقاد مهمتهم ، وعلى القراء فهمهم ، اذ يجيل لهم انهم يصبحون اقرب الى الشاعر او الكاتبة اذا صنّفوه بين الابداعيين او التأثرين او غيرهم .

والتعارف عليه بين اكثر النقاد اليوم ان جورج شحادة من اتباع المدرسة السريالية Surrealiste وهكذا قال شيخ السرياليين وزعيمهم اندره برتون André Breton حين مثلت مسرحية شحادة « السيد بوبل » في العام الفائت ودعمه في ذلك رؤوس السرياليين مثل رينه شار René Char وبنجان بيويه Benjamin Péret وهنري بيشت Henri Pichette . ولهذا المسرحية قصة طويلة ، فقد اشعلت حرباً كلامية بين انصار الشعر الكلاسيكي والمؤمنين بالشعر الحديث على صفحات الجرائد الفرنسية . وقد رأى الآخرون في مسرحية جورج شحادة « أثراً ذا جمال خارق » .

وقد ظهرت في باريس اخيراً مجموعتان من الشعر الفرنسي الحديث ، تبوأ فيها جورج شحادة مكانه بين كبار الشعراء المعاصرين من هنري ميشو Henri Michaux الى بول ايلوار Paul Eluard واندره برتون André Breton . . .

ومهما تكن المدرسة التي قد تطالب بجورج شحادة ، فانه ينطق بلسان الشاعر الصرفة ، لسان الذين لا تسعهم مدرسة ولا يعترفون بالهة سوى ربة الشعر .

صباح محبي الدين «باريس»

ويبصر أبعد من الواقع اذ يرى ما يحيط بالاشياء من هالة مثقلة بمختلف الممكنات الفريدة . والشاعر هنا - والقاري ايضاً - كاطفل يشيد بجياله قصوراً بما بين يديه من قصاصات وقلامات ، ويرى في السحاب مدناً اسطورية سقوفها من ذهب وشوارعها من زمرد ومرجان ، ويجعل من القصة الجوفاء جواداً ينطلق على صهوته نحو العوالم المرئية وغير المرئية .

فهذا اذن شعر صعب المنال على الذين يفضلون ما سهل من مسالك الشعر والفكر ، ويترددون امام السبل الوعرة وان كانت تنفتح على آفاق عذراء لم تقضها عين من قبل .

ومن يرغب في السهولة فليده لامارتين وامثالاه ، يسيل شعرهم كالنهر امام الناظر ويغيب عن عينيه في اول منعرج يلاقه . اما هذا الشعر الذي نحن في صدده ، شعر جورج شحادة وقرنائه امثال هنري ميشو ورنه شار وسان جون برس . . . فيتفجر من اعماق القاريء الذي اسبغت عليه آلهة الشعر نعمة التناغم الشعري ، ويهف كأريح الزهر يحمله النسيم الآتي من بعيد ، فما يتنسمه المرء حتى يرى رأي العين حداثق غناء ، وباسميناً ووروداً واشجاراً مزهرة من البرتقال ، او هو كالنغم الشريد يترك السمع فيرجع صدهاء في طيات الذكري ومعارج الحيال ، وينتصب حوله عالم من السحر الموسيقي البديع .

*

وقد يتساءل القاريء الى اية مدرسة شعرية ينتسب جورج شحادة ؟ وانا من الذين يقولون بسخافة هذه الاصطلاحات التي